العقاب ضرورة نفسية

للاستاذ محمود محمد عمارة

المدرس بمعهد منوف الدينى

نفوسنا تلك التى بين جنوبنا . . إنما هى نفوس مركبة معقدة .

وهى بمساربها ودروبها . . وبما تحتويه من رغبات وقوى تلتقى وتتشابك . . عصية على الخضوع للملاحظة والتجربة فى معامل الكيمياء.

بيد أن علماء النفس استطاعوا أن يسبروا أغوارها . . ويقفوا على بعض أسرارها . . وها نحن أولاء نصغى إليهم لنتلقى عنهم بعض هذه الأسرار .

إنها مركبة من :

(١) نفس همجية لا تفرق بين نافع وضار .

(٢) نفس واقعية . . وهى التى اتصلت بالواقع وخضعت لقوانينه فتهذبت . . وتقلمت أظفارها ،

(٣) الضمير : وهو الديدبان اليقظ الذى يقف حارسا بين النفس الأولى « السفلى » والثانية « العليا » .

فلا يسمح للنفس السفلى بتحقيق رغباتها على شكل بدائى . . ويحاول دائما أن يوفق بين مطالب الثانية ومطالب المجتمع .

والنفس الأولى تهز الثانية من أسفل . والضمير يهزها من أعلى ثم يهددها إذا استمعت للأولى .

وإذا تمكنت النفس السفلى من تحقيق رغباتها على صورة بدائية لا تليق . فى هذه اللحظة . يحدث نوع من التوتر فى حياة الإنسان . تضطرب له حياته . ويختل من أجله ميزانه .

والشعور بهذا القلق يوجه الإنسان إلى محاولة التخلص منه .

بماذا ؟

بطلب العقاب المناسب للجريمة .

ومتى وقع هـــذا العقاب على الإنسان زال القلق . وتقلصت ظلال الحيرة . حيث إن الضمير سيهدأ .

وبذلك تسترد النفس صفاءها ونقاءها فالعقاب إذن ضرورة نفسية نلح فى طلبها لتعود إلينا راحتنا المفقودة .

وليس هو بدعة استنها علماء النفس واخترعوها من ذات أنفسهم . وهذا هو السر الواضح الذى يفسر لنا موقف « ماعز » و « الغامديه » فقد اعترفا بذنبهما للرسول صلى الله عليه وسلم .

وعلى الرغم من رد الرسول لهما إلا أنهما ألحا فى طلب العقاب . وإذا كان لنا أن نفسر هذا الموقف من الوجهة الدينية فنرده إلى الخوف من الله والعزم على التوبة . إلا أنه صادر أيضا نتيجة هذا القلق النفسى الذى يجد فى العقاب راحة دنيوية تخلصهما من ألم الحيرة وعذاب القلق .

ويشير القرآن الكريم إلى هذه النفوس فيقول تعالى مشيراً إلى الضمير : « بل الإنسان على نفسه بصيرة . »

ويقول سبحانه مشيراً إلى النفس السفلى والعليا :

« ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » .

وبناء على ما تقدم . وإذا أردنا للجريمة أن تنكس رايتها السوداء ، فما علينا إلا أن نعاقب المجرم ليزول هذا القلق .

وجريمة العرض التى ارتكبها ماعز ، تذكرنا بجرائم العرض التى يرتكبها اليوم خلفاء « جيمس دين » !

وتدعونا فى الوقت نفسه إلى الضرب بيد من حديد على أيدى هؤلاء المارقين وردهم إلى صوابهم ،

ذلك لأن الجريمة الخلقية تستمد وجودها من غريزة ناشزة هى الغريزة الجنسية . والإسلام ينظر إليها نظرة خاصة تكافىء مبلغ خطرها وتأثيرها فى كيان الجماعة ، ولا ننسى ونحن ندعو إلى الزحف المقدس لنمحو أثر هـــذه الشهوة ، لا ننسى الصحافة الصفراء التى مهدت لظهور خلفاء لهذا الجيمس دين !!

إن الصحافة الملونة ، التى تحاربه اليوم هى نفسها التى خلقته بالأمس !

لقد كان فى أوربا جيمس واحد فأصبح لدينا — والفضل لها — ألف جيمس !! قرأنا على صفحاتها نبأ شاب حاول الانتحار من أجل عيون أحد المغنين ، ولم تعلق بكلمة واحدة تنطوى على الإزراء بمثل هذا الهراء!

ووجدناها تفتح عيون الشباب على الشاطىء وما فيه ، وليت الأمر

وقف عند هذا الحد ، بل إنها تهزأ برجل الدين إذا ما قام بواجبه أمام هذا العبث !

قرأنا أخبارها فوجدنا جلها إن لم يكن كلها يدور حول أهل الفن ولون معيشتهم الداخلية والخارجية .

فى حين أنك لو ذهبت لترفع شكوى من أجل مسجد تهدم ، لا تمكن من ذلك إلا إذا دفعت أجراً يوازى أجر إعلان عن نوع من الخمور جديد ! ! !

فلماذا إذن — والحال هذه — لا يظهر جيمس دين فى المصنع والمكتب والحقل ! ؟

لماذا لا يجرى التميع فى عروق الشباب مادامت تلك الصحف تقدم لهم الوجبات الشهية بدون مقابل ؟

ولقد أصبح موقف رجل الدين إزاء هذا التيار الجارف كما يقول أحد العلماء كرجل يقف على شاطىء البحر الأحمر يريد أن يغير طعمه بحوال من السكر ! !

فإذ أردتم أن يختفى جيمس دين فما على هذه الجرائد إلا أن تختفى من الوجود أولا .

وثانيا قفوا هذا التبرج عند حده فالفتنة نائمة لعن الله من أيقظها ، إننا نشاهد المرأة تسير فى الطريق فيصعب على العقل أن يصدق بأن وراءها رجلا له شرف وكرامة !

وعندما نقرأ قوله تعالى :

« ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى » فترتسم فى خيالنا صورة قاتمة للمرأة فى الجاهلية ومبلغ خروجها على الذوق والآداب . وفى وجداننا إحساس بأن نساءنا مهما بلغن من التمرد فلن يلحقن بالجاهليات !

ولكن استمعوا إلى المفسرين وهم يبينون لنا مدى هذا التبرج :

قال قتادة : كانت لهن مشية فيها تكسر وتمايل .

وقال مجاهد : كانت المرأة تخرج وتمشى بين الرجال .

وقال ابن كثير : كانت تخرج كاشفة عن صدرها وربما أظهرت عنقها وذوائب شعرها .

هذه صورة عامة للتبرج فى الجاهلية وأين هو من تبرج نسائنا اليوم ؟!

إن المرأة اليوم لم تكتف بالمشى بين الرجال ، ولكنها تأكل معه ، وتنزل البحر معه ، ويستلقيان على الشاطىء الممتد تحت أشعة الشمس وهبات النسيم ؟ !

وفى الجاهلية كانت تكشف عن صدرها أما اليوم ، فقد أبرزت صدرها وساقها وشعرها ، بل لبست الشفاف ، كثوب الرياء يشف عما تحته

إننا فى حاجة إلى حملة تطهير واسعة النطاق .

فجميل أن نحتفل بأسبوع للنظافة، حتى تبدو الطرقات نظيفة تشرح الصدر وتسر النفس .

وأجمل منه أن تتوجه الحملة إلى داخل النفس إلى منعطفاتها الملتوية فتسلط عليها الأضواء ، وتمد الضمير بألوان من الثقافة والمعرفة حتى نخلق جيلا نظيف القلب فيعكس صفاءه على الحياة نفسها لأن فاقد الشيء لا يعطيه! نفعل هذا ، وبأيماننا درة عمر رضى الله عنه . وفى قلوبنا عزيمته التى لم يكن يأخذها فى الحق لومة لائم ، وبها عاشت مبادىء الإسلام حية فى النفوس .

وكان هناك شيء اسمه الكرامة الإنسانيه ! لا يكفى أبدا أن نشرح الفضيلة للشباب بطريقة ذهنية عقيمة.

ولا يكفى أبداً أن نبين لهم عواقب الرذيلة بصورة نظرية باهتة ، بدون تعرض لعقاب .

وهو نفس الاتجاه الذى ينادى به بعض علماء التربية فى وقتنا الحاضر بل لا بد من العقاب .

وقد أخذ الإسلام بهذا المبدأ ، فقرر العلماء ضرب الطفل وهو ابن عشر إذا ترك الصلاة .

وهذا هو الدكتور « بنجامين سباك » عالم النفس الأمريكى يقرر أن الضرب أمر ضرورى فى تربية الطفل ، وأنه بحث حالات كثيرة ، فوجد أن أقوم الشباب الرجال خلقا هم الذين كانوا يضربون فى صغرهم جزاء أخطائهم .

وأن أفسدهم خلقا وأضعفهم شخصية من سلم من الضرب صغيراً .

ومع هذا . وقبل هذا ، يجب أن تسلط الأضواء وتبذل الجهود لتطهير هذا الحارس اليقظ ، الضمير ! حتى يستطيع أن يؤدى رسالته النبيلة على خير وجه وأكمله ، يجب أن تساوق جهودنا لرفعته ، دوره الخطير الذى يقوم به فى بناء حياتنا .

ومتى تخلص الضمير من أوشاب الحياة ، ومتى تركزت فيه خصائص القاضى النزيه والحكم العدل .

أصبح فى حياتنا صراطا مستقيما ننقل عليه خطانا فى ثبات ، فلا تزل قدمنا فنقع فى بئر من رغباتنا الهابطة فلا نشعر بمن حولنا ، ولا نقع فى معمعان الواقع الصاخب فننسى نفوسنا بما لها من حقوق وما عليها من واجبات

وأين هو الضمير الذى يربيه الإسلام ليتخلص من شبح الجريمة ؟

لعل أجمل لوحة فى تاريخ الإسلام

تصور لنا هذا الضمير فى بهائه وصفائه تلك الحادثة :

استعمل عمر رضى الله عنه «النعمان ابن مقرن» على «كسكر» ليجمع الزكاة من أهلها ، وليس عليه رقيب ولا حسيب إلا ضميره وحده .

وفى استطاعته أن ينهب ويسلب ما شاء له السلب ، وطرق التخلص من المسئولية كثيرة !

ولكن النعمان العظيم يتحرك ضميره فيرى المال الكثير ، والمال الكثير طالما طرق باب القلب فى إصرار وغواية فيكتب إلى عمر قائلا :

«يا أمير المؤمنين : إن مثلى ومثل كسكر ، كمثل رجل شاب عنده مومس تتلون له وتتعطر ، وإنى أنشدك الله أن تعزلنى عن «كسكر» وبعثتنى فى جيش من جيوش المسلمين» !!

لك الله أيها النعمان العظيم ! !

إن قصف المدافع ، والدم المسفوك وأهوال المعارك ، أهون بكثير من خطيئة يرتكبها فتلوث صفحة الضمير البيضاء .

ولتذهب يا نعمان إلى ميدان القتال ولتقطع يدك ، بل ليبق عنقك دقا .

ولتهزم أيضا فتدوسك أقدام الخيل المنطلقة . كل هذا يهون وهزيمة الإنسان فى معركة الحرية فيجيا وهو ميت خير من هزيمة الضمير أمام المال فيموت وهو حى !!

وما أروع ما سطره الشاعر أحمد الزين يصف سلطان الضمير :

هو صوت السماء فى عالم الأر
ض وروح من اللطيف الخبير
وشعاع تذوب تحت سناه
خدع العيش من رياء وزور
هو سر يحار فى كنهه اللـ
ـب وتعيا به قوى التفكير
كل حى عليه منه رقيب
حل من قلبه مكان الشعور
حل حيث الاهواء تنزو إلى الإ
ثم وتهفو إلى مهاوى الشرور
جامحات أعيت الناس كبحا
رغم إنذارها بسوء المصير
ثم صاح الضمير فيها نذيرا
فأصاخت إلى صياح النذير
هو روح من الملائك يسمو
بسليل الثرى إلى عالم نور
قد تولت بالأنبياء عصور
وهو باق على توالى العصور
حافظا فى الزمان ما خلفوه
قائما فى الصدور بالتذكير
حاملا من شرائع الخير كتبا
قدست من صحائف وسطور
ليس يعفو عن الهنات وإن ها
نت ملـــح فى اللوم والتعزير

بقيـة المنشور على صفحة ٣٤

والعابدين ؛ لأن الأنس عند هذه الطائفة هى الغاية القصوى من زهدهم ؛ ثم أنسهم بالله تعالى متصور على خلوتهم ؛ لذلك تراهم دائبين على العزلة والفرار من الخلق . ولذلك قيل لبعض حكمائهم: إلى أى شىء أفضى بكم الزهد والخلوة؟ فقال: إلى الأنس بالله ويقول سفيان بن عيينه : لقيت ابراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى فى الشام فقلت له: يا إبراهيم لم تركت خراسان ؟ فقال : ما تهنأت بالعيش إلا هنا ، أفر بدينى من شاهق إلى شاهق فمن رآنى يقول موسوس أو حمال أو ملاح . وقيل لغزوان الرقاشى : هبك لا تضحك فما يمنعك من مجالسة إخوانك؟ فقال: إنما أصيب راحة قلبى فى مجالسة من عنده حاجتى . ويقول بعض الصالحين : رأيت عابداً خارجا من جبل بالشام فلما رآنى أنظر إليه تنحى عنى وتوارى خلف شجرة، فقلت له سبحان الله! أتبخل على بالنظر إليك ؟ فقال يا هذا إنى أقمت فى هذا الجبل دهرا طويلا أعالج قلبى فى الصبر عن الدنيا وأهلها ، فطال فى ذلك تعبى وفنى منه عمرى ، فسألت الله تعالى ألا يجعل حظى من أيامى فى مجاهدة قلبى، فسكنه الله تعالى عن الاضطراب وألفه الوحدة والانفراد، فلما نظرت إليك خفت أن أقع فى الأمر الأول فاليك عنى فانى أعوذ من شرك برب العارفين وحبيب القانتين ، ثم صاح واغماه من طول المكث فى الدنيا ثم حول وجهه عنى ثم نفض يديه قائلا: إليك عنى يادنيا لغيرى فتزينى وأهلك فغرى، وما ذلك فى الحقيقة إلا لضيق علم هذه الطائفة بالله ، ولو شاهدوه فى كل شىء لأنسوا به فى كل شىء ولما وقعت لهم الوحشة فى شىء ، كما كان صلى الله عليه وسلم والكمل من صحابته كانوا مع الخلق بأبدانهم ومع الله بقلوبهم مجتمعين فى خلوة وغرباء فى حضر، وحاضرين فى سفر، وشاهدين فى غيبة ، وغائبين فى حضور لا يشغلهم شأن عن شأن .

وقد أفصح لنا صلى الله عليه وسلم عن ذلك مخبراً لنا عن حاله حينما ظنت الصحابة أنه خليل أبى بكر ؛ لدوام مصاحبته فقال صلوات الله عليه « لو كنت متخذاً من الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن صاحبكم خليل الله » فهو مع دوام معاشرته لأبى بكر الذى هو خير صاحب له لم يركن إليه ، ولم يشغله حب أبى بكر عن ربه ، وفى ذلك جمع بين الأمرين وإعطاء لكل مرتبة حقها . ولقد سار

على هذا المنهج القويم الكمل من القوم الذين سلكوا إلى الله تعالى ، حتى قال سيد الطائفة أبى القاسم الجنيد رضى الله عنه معبراً لنا عن حاله : أنا أكلم الله منذ ثلاثين سنة ، والناس يظنون أنى أكلمهم . ولا يتم ذلك فى الحقيقة إلا لمن اتسع علمه فأنس بربه فى كل شىء ، ولا يكون ذلك إلا بسلوك ما سلكه العارفون والمحققون من مشاهدة الجمال الإلهى فى كل شىء .

نعم لقد علم العارفون والمحققون من أهل الله تبارك وتعالى أن المظاهر الخلقية حجاب عن الذات العلية ، وإن هذه المظاهر لا قوام لها من حيث ذاتها ، ولا جمال فيها من حيث هى ، بل قوامها بقيوم السموات والأرض وما فيها من جمال وجلال وكمال ، إنما هى مراتب تنزلات جمال الحق ، وجلاله وكماله ؛ لذلك شاهدوه فى كل شىء وأنسوا به فى كل شىء ، ولم يستوحشوا كغيرهم من شىء . وذلك لأن أنس عبارة عن فرح القلب واستبشاره بمطالعة الجمال الإلهى ، وهو على ثلاث درجات : أنس ينشأ من مطالعة آيات الجمال الإلهى فى حضرة الأثر يمازجه الشوق . وأنس ينشأ عن مشاهدة الجمال فى حضرة الصفات يمازجه الفناء . وأنس ينشأ عن الفناء فى شهود الحضرة . أما بيان الأنيس الأول فهو أننا نرى أن فى الوجود جمالا ، وذلك الجمال ينقسم إلى قسمين : جمال حسى ، وجمال معنوى ، أما الجمال الحسى : فهو ما يدرك بالحس ، وأما الجمال المعنوى : فهو ما يدرك بالبصيرة وإليهما الإشارة بقول الله عز وجل : « خلقكم فأحسن صوركم » وصح إطلاق اسم الصورة على كل متعين ظاهراً كان أو باطناً ، ثم لا يخلو ذلك الجمال من أمرين : إما أن يكون لذات الممكن من حيث هو ، وإما أن يكون مفاضاً عليه من غيره ، فإن كان الأول فهو باطل . ضرورة أن الممكن لا وجود له من ذاته فضلا عن أن يكون فيه جمال من حيث هو ، وإذا كان الأول باطلا فلا بد أن نقول بالأمر الثانى ، وهو أن كل جمال اتصف به الممكن إنما هو مرتبة من مراتب تنزلات الجمال الإلهى فى حضرة الأثر ، تجلى بها البديع فى مرآة الإمكان ؛ لتكون دليلا عليه لمن كان له قلب ، وفى ذلك يقول بعض العارفين رضى الله عنه :

كل الجهات لشمس حسنك مشرق
ولكل ذى قلب إليك تشوق

يا واهب الحسن البديع لأهله
كل لحسنك فى الحقيقة يعشق

وحيث إن للحق تبارك وتعالى فى كل شىء آية من آيات الجمال فكيف يستوحش الإنسان من شىء وفيه جماله؟! لذلك نرى أن العارفين والمحققين لم يستوحشوا من شىء ؛ لأنهم ناظرون إلى جماله فى كل شىء ؛ « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » وذا اسم إشارة إلى القريب ، ولا شك أن من شهد جمال الحق أحبه ، ومن أحب شيئاً كان أنسه به . أما المرتبة الثانية: فهى أن الجمال الإلهى فى حضرة الإمكان وإن كان ظاهراً ، إلا أنه من خلف حجاب الأثر ، فكان مثل المحب الناظر إليه كمثل من مشهد محبوبه من خلف ستر رقيق . ولما أن كانت همة العارفين عالية لم يكتفوا بما بدا لهم من آيات الجمال فى هذه الحضرة . حملهم الشوق إلى استكمال هذه الرؤية بالنظر إلى كنه الجمال من خلف حجاب الأثر فسلكوا ما رسمه لهم البديع على لسان نبيه طالبين رفع ذلك الحجاب حتى يشهدوا محبوبهم . وأعنى بما رسمه الحق على لسان نبيه ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم مبيناً « ما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى من أداء ما افترضته عليه ، ومازال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، ومتى أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها » إلى آخره والحب الإلهى يرجع معناه إلى مسارعة الحق فى كشف الحجاب الحائل بينه وبين من اصطفاه لقربه . ولا شك أن من شهد جمال الحق من غير حجاب غلب عليه الأنس به وأحاط به الفناء فيه . أما الأنس فى المرتبة الثالثة: فهو أنس بشهود الحضرة. وعنده تسقط العبارات والإشارات. لا يعلم فيحاط به ولا تستشعر حيثيته فيشار إليه ، ولا يعقل فينجر عنه ، وذلك لظهور سلطان الذات الموجب لمحو العبارات والإشارات. ومن وصل إلى المرتبة الأولى فى مشاهدة الجمال حصل له الأنس به فى كل شىء ، ومن حرم من مشاهدة جماله استوحش من كل شىء ، ومن ثم اختلف القوم فى مشاربهم . فغاية العباد والزهاد من المزلة الوصول إلى الأنس به ، وغاية العارفين والمحققين من السير الوصول إلى الحضرة والفناء فيها ، حتى يكونوا بالله وإلى الله « قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لاشريك له » . والله يقول الحق ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

محمد عيد الشافعى